يعقوب صروف

١٨٥٢ – ١٩٢٧

اقترن اسم يعقوب صروف على امتداد حياته بمجلة "المقتطف" التي أنشأها بالاشتراك مع صديقه وزميله في الدراسة فارس نمر في بيروت في عام ١٨٧٦. وكانت "المقتطف" منذ تأسيسها حتى آخر عدد من أعدادها التي استمرت في الصدور خمسين عاماً بمثابة المدرسة للأجيال العربية في شتى ميادين المعرفة، لا سيما المعرفة العلمية. وكان صروف منذ بدايات حياته شغوفاً بالمعرفة، باحثاً بجهد متواصل عن الوسائل التي تقوده إلى امتلاكها والإسهام في الإبداع فيها. وكانت "المقتطف"، إلى جاب ما قدمه فيها بقلمه وترجمة الأبحاث من اللغات الأجنبية، ملتقى للعديد ممن كانوا وممن صاروا رواداً في إنتاج المعارف العلمية، وممن كانوا وصاروا رموزاً معروفة في علم اللغة وفي الإبداع الأدبي.

ولد يعقوب صروف في بلدة الحدت اللبنانية الواقعة في جنوب شرق العاصمة بيروت في عام ١٨٥٢. أدخله والده في مدرسة بلدة عبيه في أعالي الجبل اللبناني غير بعيد عن بلدة الحدت التي ولد فيها. وما كاد يشرف على نهاية الدراسة في تلك المدرسة حتى كانت الجامعة الأميركية في بيروت قد أسست في عام ١٨٦٦ كلية للآداب والعلوم، وأطلق عليها اسم المدرسة الانجيلة السورية. فدخلها مع خمسة عشر طالباً آخرين، وقضى أربع سنوات يتلقى فيها العلوم الرياضية والطبيعية والتاريخ واللغة والبيان. وكان من أساتذته فيها الشيخ ناصيف اليازجي والشيخ يوسف الأسير، وكلاهما من أعلام اللغة العربية في ذلك العهد.

تخرج يعقوب صروف من المدرسة الإنجيلية السورية في عام ١٨٧٠ حاملاً رتبة بكالوريوس في العلوم، مع أربعة آخرين كانوا الطليعة الأولى لقوافل المتخرجين. وتابع التعليم على امتداد ثلاث سنوات في مدارس صيدا وطرابلس. ثم دعته الكلية في بدء السنة الدراسية (١٨٧٣-١٨٧٤) إلى تدريس العلوم الرياضية والفلسفة الطبيعية (علم الطبيعة والفيزياء). فعكف على الدرس والتدريس. وقرن العلم بالعمل. وجعل تلامذته يطبقون علم الهندسة وحساب المثلثات على مساحة الأراضي، ويصنعون الآلات الطبيعية

كلفائف الحدوة والأجراس الكهربائية. وكان ذلك دأبه وهو تلميذ. فقد صنع آلة تدور بالماء على مبدأ مطحنة "باركر" وهو يدرس علم السائلات، فأخذها رئيس المدرسة وحفظها بين أجهزة الفلسفة الطبيعية. وهي التى ذكرته به المدرسة عندما كانت تفتش عن أستاذ لتدريس علم الطبيعيات. درس يعقوب أيضاً، إلى جانب العلوم، اللغة والبيان فتمكن من أصول اللغة وأسرار حياتها وفنون تطورها. ويذكر ابن شقيقه فؤاد صروف ما قاله له عمه يعقوب في غير مرة، في معرض الحديث عن مهام رئاسة تحرير مجلة "المقتطف"، إن الفرص التي أتيحت له لتدريس طائفة من فروع المعرفة هي التي مكنت له فيما بعد أن يتابع بعناية سير العلوم الحديثة وتطورها، وإفراغ معانيها في "المقتطف"، في بيان عربي يجمع بين وضوح المعنى وسلامة اللغة. وقد كان حتى أواخر أيام حياته يطلع على الجديد في علوم الطبيعة والكيمياء والفلك والأحياء، في واحدة أو أخرى من أمهات المجلات العلمية. وإذ استقر مدرساً في الجامعة الأميركية فقد قرر مع صديقه وزميله فارس نمر إصدار العدد الأول من "المقتطف". وكان ذلك في عام ١٨٧٦. وينقل فؤاد صروف عن عمه يعقوب قوله: "لما ابتدأت سنة ١٨٧٦ كنا في الكلية الانجيلية السورية أحدنا يدرّس الفلسفة الطبيعية والرياضيات والآخر يدرّس علم الهيئة واللغة اللاتينية. وكنا نقضي ساعات الفراغ في مطالعة الكتب والمجلات والمذاكرة في مباحث العلماء الحديثة والخطابة في الأندية العلمية والأدبية. وكنا نأسف لأن لغتنا العربية خالية من جريدة تبسط فيها العلوم والفنون بسطاً يقربها بأفهام القراء وتنشر فيها خلاصة المكتشفات الجديدة والتحقيقات المفيدة شهراً بعد شهر حتى يبقى أبناء المشرق عامة وتلامذتنا خاصة جارين مع العلم في سيره الحثيث. وكان أصدقاؤنا الذين يعرفون وسائطنا يحثوننا على القيام بهذا العمل الخطير لحسن اعتقادهم بنا ولشدة الحاجة إليه. وذات يوم كنا جالسين في غرفة أحدنا بجانب البهو الكبير الذي هو الآن مكتبة الجامعة، وكان حينئذ منتداها ومحل العبادة فيها، فنظرنا في هذا الأمر وقر رأينا على إنشاء جريدة تفي بالغرض المطلوب. ورسمنا خطتها من تلك الساعة. وطلبنا العون والارشاد من العزة الالهية. ثم قصدنا المرصد الفلكي حيث

أستاذنا الدكتور فان ديك وأخبرناه بما عزمنا عليه وسألناه أن يختار لنا اسماً له. فأبرقت أسرته وجعل يشدد عزائمنا ويسهل علينا الصعاب وقال سمياه "المقتطف" واجعلاه كاسمه وحسبكما ذلك. ثم كتب إلى صاحب السعادة خليل أفندي الخوري، وكان مديراً للمطبوعات في ولاية سورية، يطلب منه أن يسعى لنا في استصدار الرخصة السلطانية بأسرع ما يمكن. ففعل. ولم يمض شهران حتى أتتنا الرخصة فذهبنا وبشرناه بها، فقال سيرا في عملكما والله معكما، وأنا سأشرع من هذه الساعة في كتابة بعض الفصول لـ"المقتطف". فكتب فصول "أطباء اليونان والشرق". ونشرنا أول فصل منها في الجزء الثاني الذي صدر في غرة يوليو سنة ١٨٧٦. وأتاح لنا كل ما عنده من الكتب والجرائد والآلات والأدوات لكي نستعملها كما نشاء من غير حساب. واستشرنا أيضاً رئيس الكلية وسائر أساتذتنا في ما نحن عازمون عليه فشددوا عزائمنا وأباحوا لنا كل ما في الكلية من كتب وآلات ومستحضرات علمية. ونشرنا حينئذ إعلاناً وزعناه في بيروت وغيرها من المدن السورية وهذه صورته: "لا يخفى أن الجرائد العلمية والصناعية من أفضل الوسائل لنشر العلم والصناعة وتسهيل منافعهما الخاصة والعامة. ولما كانت خدمة الوطن فرضاً واجباً وكنا بحيث يسهل علينا الاعتضاد بأهل العلم والفضل والوقوف على كتب كثيرة متعددة اللغات يعتمد عليها في العلم والصناعة واستحضارات متنوعة من فلسفية وكيماوية وفلكية ومتيورولوجية وجيولوجية وفيزيولوجية وغيرها. وبناء على طلب كثيرين ممن يعرفون وسائطنا ويهمهم تقدم الوطن عزمنا، بعد الاتكال عليه تعالى وبهمة أولياء الأمور العظام، على نشر جريدة علمية وصناعية سميناها "المقتطف" صفحاتها أربع وعشرون صفحة بقطع هذا الاعلان وحرفه، تصدر مرة في الشهر. وهي لا تتعرض لشيء من المسائل الدينية والسياسية على الاطلاق. بل تقتصر على المباحث العلمية كالطبيعيات والعقليات وما أشبههما، والتاريخية كتاريخ العلماء والصناع والاكتشافات والاختراعات. وإنّا سنبذل جهدنا في جعلها بسيطة سهلة المأخذ، عميقة الفائدة، أحكامها موضحة بالأشكال والصور على ما هو جار في ا لجرائد الافرنجية بحيث يستفيد منها أهل العلم والصناعة، وترتاح الخواطر إلى مطالعة ما

فيها من أخبار العلم وأهله. وسنعتمد فيها على اقتطاف ما يناسب أحوال بلادنا من أفضل الكتب والجرائد إن شاء الله". ثم أصدرنا الجزء الأول من "المقتطف" في غرة مايو سنة ١٨٧٦ وصدرناه بمقدمة مسهبة قلنا في أولها ما نصه :"لا ريب أن كل من يقف على هذا المثال يسره العمل الذي باشرناه خدمة للوطن وإجابة لطلب كثيرين من محبي التقدم ونشر الفوائد. ولم نستشر فيه أحداً من ذوي الرأي الصائب إلا حثنا عليه وأبان لنا شدة احتياج الوطن إلى ما يتسهل به الوصول إلى العلم والصناعة كهذا العمل وأمثاله. ولما رأينا مناسبة الأحوال لنا ووجوب ذلك علينا بمقتضى حق الوطن عزمنا مباشرته على ما به من القصور، مستعينين به تعالى ونلنا الرخصة السامية به من جانب نظارة المعارف الجليلة بهمة الفاضل خليل أفندي الخوري الذي اشتهرت غيرته على مصالح الوطن. وقد أصبحنا مدينين لأساتذة الكلية بالمساعدات التي وعدونا بها. ولنا الأمل الوطيد في أن هذه الجريدة تقع عند الجمهور موقع القبول، وترغّب الطلاب في إحراز العلم وإتقان الصناعة وإحياء رميمها، وترميم باليها، لشدة افتقارنا إليهما كليهما. على أن كثيرين يزعمون أنا قد بلغنا من العلم غاية ما يحتاج إليه، وأن الأحرى بنا أن نقتصر على طلب الصناعة، وذلك غير سديد. أما ترى أن الصناعة مؤسسة على العلم، وأنها إنما تتقن بتهذيب العقل والذوق، وأن الصانع الحاذق هو العالم بأصول صناعته وحقائقها، وهذه لا تعرف جيداً إلا بدرس ما أسست عليه من المبادئ العلمية، وكفانا برهاناً على ذلك أن الافرنج وغيرهم من الذي أتقنوا الصناعات يجتهدون في تعليم الأفراد غاية الاجتهاد وبعضهم يوجبه شرعاً. فالأحرى بنا أن نقصد العلوم من حيث تؤدي إلى الصناعة، جادين في تلك، غير مهملين هذه، ولا حاجة بعد إلى الاطالة في ذلك فكل من وقف على مبادئ العلوم يرى لزوم معرفتها للصانع ولو إجمالاً. ولعل هذا المثال يدل على حقيقة بحثنا في المواضيع، غير أنها تكون في ما بعد أكثر استيفاء كما هو مذكور في محله، وربما كانت أسهل فهما لأنا سنقرر المبادئ ثم نبني عليها. وقد التزمنا هنا أن نفرض أن كثيراً من مبادئ العلم والصناعة معروف، فبنينا عليه لضيق المقام، وسنسلك تارة مسلك التعليم وأخرى مسلك الشرح، ونوجز

تارة، ونسهب أخرى بحسب الاقتضاء، ولما كانت مواضيعها لا تتعرض للمباحث الدينية ولا السياسية إلا من باب العلم، فكل ما يرد إلينا خارجاً عن هذا الباب غير مقبول".

وقد أقام يعقوب صروف وفارس نمر تسع سنوات تقريباً بعد ذلك، يدرّسان في الكلية الانجيلية السورية، ويصدران "المقتطف". وفي عام ١٨٨٥ تركا عملهما في الكلية لأسباب يتعلق بعضها بحرية الفكر في موضوع علمي كان يومذاك مدار جدل ونقاش عالميين، وسافرا إلى مصر وأصدرا العدد السادس من المجلة في عامها التاسع في القاهرة. يقول فؤاد صروف تعليقاً على إصدار المجلة وعلى الدور الذي مارسته: "ليس ثمة ريب في نظري أن يعقوب صروف وصاحبه رأيا بالبصيرة صورة كاملة للعلم متجسماً في مجلتهما. فتجربتهما السابقة في التدريس تغري بهذا الرأي. والخطة التي سارت عليها "المقتطف" تؤيده. فقد رأياها، فيما يرجح عندي، مجلة تلتقي في ساحتها –كما تلتقي العقول في حجرة الدراسة– أقلام الكتاب والعلماء، بأفهام القراء، فيولّد الالتقاء احتكاكاً، وقد يولّد صداماً، يبعثان في العقول نوراً وناراً. فهي تأخذ باليمين لتعطي اليسار. تأخذ من المبدع والعالم والمستنبط والباحث والكاتب والأستاذ، لتعطي التاجر والزارع والصانع والمدرس والطالب وربة البيت. فهي، أي المجلة، كالمعلم، صلة الوصل بين عالم الابداع الفكري وعالم التطبيق المجدي، هي وسيط كالوسيط الكيميائي بين مباحث العلماء الفنية وقدرة الجمهور المثقف على استيعابها والافادة منها فكراً وعملاً. والجمهور يطلبها ويقبل عليها إذا جاءت جلية ميسرة في لغة تجمع بين القصد والسهولة، دون أن تغفل سر روحها وروائع عبقريتها. والعلم، لا يرتقى، ولا ينال قسطه من الشيوع والتأييد، ولا تجنى طائفة كبيرة من منافعه، إن لم تتصل نتائج البحوث العلمية بأفهام الناس وتتغلغل عن طريق الفهم في نواحي الحياة – حياة الفرد وحياة الجماعة–، لذلك كان أبسط الحقائق العلمية ونشرها، لازمين ككشفها وتحقيقها. ومن هنا نبت أثر "المقتطف" أو أثر يعقوب صروف الأكبر، من حيث هو معلم من معلمي العرب، في السنين الخمسين المنبسطة على الربع الأخير من القرن الماضي والربع الأول من هذا القرن".

ويقول فؤاد صروف : أن "المقتطف" كانت تتجنب "الأبحاث الدينية والسياسية"، كما جاء في بيانها الأول. لكن الهزة التي شهدتها عصور النهضة في أوروبا، وبخاصة ما هي ممثلة في قصة غاليليو المشهورة، شهد "المقتطف" مثلها أو ما كان من قبيلها بعد قرن. وكاد يقع في محنة لو لم ترد لحدث من نفعه أو ربما قضت عليه وهو لا يزال في مهده. فقد احتج قطب من أقطاب الطوائف المسيحية على مقال عن دوران الأرض فقال في رسالة حمل فيها حملة منكرة على "المقتطف": إنه يعلّم الناس تعليماً مخالفاً لما في الكتب المنزلة بادعائه أن الأرض تتحرك والشمس ثابتة". وخشي يعقوب يومئذ أن يكون مصير "المقتطف" مصير غاليليو. لكن لم يكن بد من نشر رسالة القطب. فحرية الرأي ينبغي أن تحترم، والعلم الذي لا يستطيع أن يفتح صدره للنقد ليس العلم الذي يريده "المقتطف" وصاحبه أن يذيع. فلما اطلع العالم المصري الكبير عبد الله فكري وكيل نظارة المعارف المصرية يومئذ على ما نشر، بعث برسالة إلى "المقتطف" عنوانها "مقارنة بعض مباحث الهيئة بالوارد في النصوص الشرعية"، وفيها دفاع دامغ الحجة عن أحكام علم الهيئة الحديث، فكان لما نشر من هذه الرسالة وقع عظيم عند الجمهور. والحق يقال إن ما نشر في "المقتطف من أبحاث علم الهيئة أو الفلك الحديث، في تطوره، كان من أكثر ما نشر فيه إمتاعاً، ومن أهداها إلى حرية الفكر في ميادين العلوم، وانطلاقه مما كان يقيده. أما القضية الثانية التي خاض "المقتطف" غمارها، فهي قضية التطور العضوي. وقد كانت حديثة العهد، لأن داروين لم ينشر كتابه "أصل الأنواع" إلا في سنة ١٨٥٩، أي قبل صدور المقتطف بسبع عشرة سنة. وقد كان صدور ذلك الكتاب إيذاناً بمعركة فكرية ظلت مستعرة الأوار بين داروين وأنصار رأيه مثل هكسلي وسبنسر وغيرهما ومعارضيه مثل أسقف ديلبر فورس وأتباعه، إلى آخر الربع الأول من هذا القرن – في بعض البلاد الغربية على الأقل.

وقد دخل المقتطف هذه المعركة في سنته السابعة، إذ نشر في جزئها الأول فصلاً عن تشارلز داروين، وفي جزئيها الثاني والثالث فصلاً مسهباً عن المذهب الداروينى، ولم يزل على ذلك، سنة بعد

سنة، كلما اقتضت الحال تفسيراً جديداً، أو وصفاً لكشف جديد أو لرأي لا عهد به من قبل. ثارت الضجة عليه ومضت حملة النقد مستعرة إلى ما بعد بداية القرن العشرين، وخاض هذه المعركة الدكتور شبلي الشميل، فصار يكتب في المقتطف ما يتحصل لديه من مطالعة المجلات العلمية، أو من التفكير في هذه المسائل، ونقل شرح بخنر على مذهب داروين، ونشرت مطبعة المقتطف مجلدين له في هذا الموضوع. وفي الربع الثاني من القرن العشرين دخل المعركة إسماعيل مظهر بترجمة أصل الأنواع وكتابة فصول كثيرة عن أثر مذهب التطور، وبخاصة في الاجتماع البشري، وجاراه وتبعه علماء أعلام".

ومن صفات يعقوب صروف، كما يقول فؤاد صروف، أنه "كان رجلاً ذا حذر في الحكم على الناس والآراء، أميناً لتحقيقه، لأنه بعد ما تمرس بالعلوم الرياضية والطبيعية وعلوم الأحياء، استبان أن الحكم الخليق أن ينال موافقة العلماء هو الحكم الذي أخذ صاحبه بعين الاعتبار جميع نواحي المسألة التي يعالجها، واستوثق من استبعاد جميع عوامل الخطأ في التجارب التي يجربها أو أكثر تلك العوامل، واستقراء عدد كبير من الحالات المتماثلة التي يدرسها. وقد كان شبلي الشميل من أحب الناس إلى صروف، وأقربهم إليه. وقد جلس معه سنتين متواليتين على مقعد واحد في زمن الدراسة، وفتح له صدر المقتطف للكتابة في شؤون التطور. ومع ذلك كتب عنه أمانة للحقيقة وللعلم، بعد أن وفاه حقه، فقال ما يلي: "وأساس الفرق بيننا وبينه في الأمور الاجتماعية أننا نميل إلى الحذر ونرى أن يذكر كل أمر بما يستحقه من الاحتمال والترجيح أو التحقيق، إثباتاً كان أو نفياً، مدفوعين إلى ذلك لما أثرته فينا العلوم الرياضية التي تعلمناها، وقلما يستطيع هذا التدقيق من لم يبحث الموضوع من جميع وجوهه، ويعرف كل ملابساته وأوجه القوة والضعف فيه. أما الدكتور الشميل فلم يدرس العلوم الرياضية، وكان حاد الذهن سريع التصور فيبادر إلى المجاهرة بما يعتقده صواباً ولو خالف المألوف ولم تقم أدلة قاطعة على تأييده".

ويتابع فؤاد صروف حديثه عن عمه يعقوب قائلاً: "كان مثلاً للتسامح. وله في ذلك نوادر يصح أن تجري مجرى الأمثال، منها أن خصماً صحفياً مشهوراً جاءه، وقد نفذ الورق من مخزنه يطلب ورقاً لطبع جريدته. فلما سئل صروف في ذلك لم يزد على قوله: "إن جاع عدوك فأطعمه وإن عطش فاسقه... وكان مستقيماً كالرمح لا يحيد عن الصدق في القول والعمل قيد شعرة. جاءه يوماً رجل عزيز عنده طلب منه وساطة عند كبير على أن لا يعلم الكبير أن هذا الرجل في القاهرة. فقال: "لا أستطيع أن أقول غير الصدق. سافر من القاهرة ثم أرى ما يمكن، وأبلغك ما يتم. وكان متواضعاً لا يأنف من مقابلة أصغر الطلبة ومحادثتهم وإرشادهم وتقبل آرائهم ومناقشتها. وعندي عشرات من الأمثلة على أحداث أتوه متهيبين فخرجوا من مكتبه وكأنهم خارجين من بين يدي والد حنون. وقد حدثني أحد الكتاب المشهورين بأنه رأى، وهو شاب، مأخذاً على بعض ما نشر في المقتطف فذهب إلى مقابلة الدكتور صروف وهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، فأحسن وفادته قبل نقده ونشره. فكان ذلك الحافز الأول الذي دفع صاحبنا إلى المضي في الكتابة وهو اليوم من أعلامها. وكان وطنياً صادق العقيدة. إشترك في شبابه في الجمعية العربية الثورية الأولى في لبنان. وكان من أشد أعضائها حماساً. لكنه لم يشتغل فيما بعد في شؤون السياسة لأنه كان مؤمناً بأن نشر العلم هو في ميزان الوطنية كالاشتغال بالسياسة على الأقل".

أوردت هذا النص لفؤاد صروف عن عمه يعقوب صروف لأنني وجدت فيه ما ينبغي أن يقال عنه من أقرب المقربين إليه. وهكذا تبرز بوضوح من خلال نصوص يعقوب ونصوص ابن شقيقه المعالم الأساسية لشخصية هذا الرائد الكبير في ميدان العلم والمعرفة وفي ميدان الصحافة العلمية التي كانت "المقتطف" منارتها.